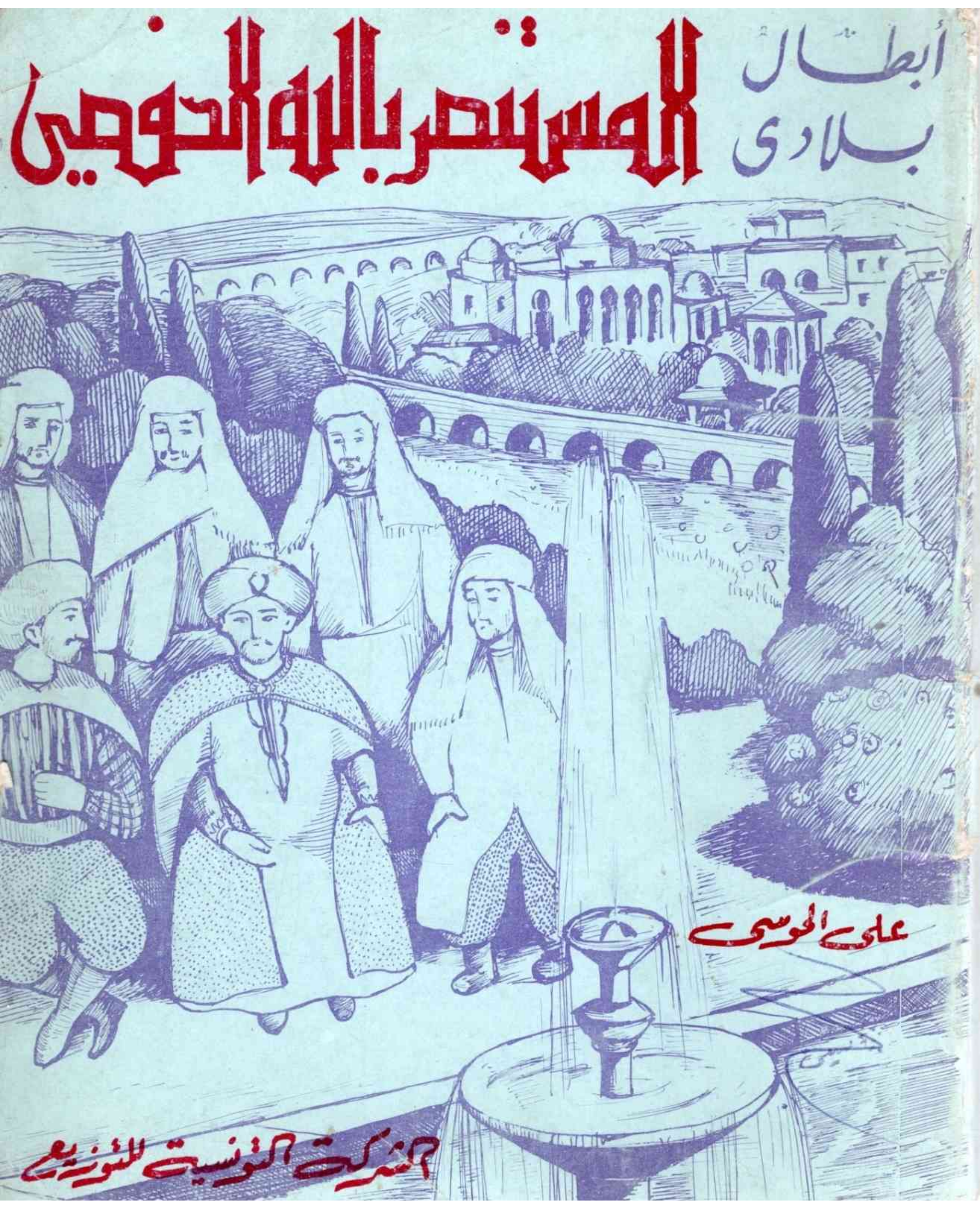

أبطال بلادي
المستنصر بالله الحفصي
علي الحوسي
الشركة التونسية للتوزيع

أبطال بلادي

المستنصر بالله الحفصي

علي الحوسي

الفصل الاول

ـــ مالك ياهلال ؟ إن حالتك لا ترضي هذه الأيام، أراك ساهما، مطرقا، كأنك تحمل هموم الدنيا على عاتقك، أتشعر بمرض ؟

ـــ عفوك، يامولانا، ليس بي أي شيء ؟

ـــ بل أنك لتخفي عني أشياء كثيرة، همســـاتك ونظراتك الحائرة وعيناك اللتان تحكيان عن ليالي طويلة قضيتها بلا نوم، كل ذلك يؤكد لي وجود سر دفين تخفيه بين ضلوعك وتجتهد في الاحتفاظ به، وتعمل على عدم افشائه.

ـــ أنا فداك، يامولانا، انك تعرف مدى إخلاصي لك، فكيف أخفي عنك سرا ؟

ـــ ذلك ما لم أعهده فيك ياهلال ؟ لكنني أحس أن بين جنبيك سرًّا دفينـــاً وحدسي لا يخطئ ـــ كما

تعلم ـــ كلامك المتقطع واصفرار وجهك وحركـــاتك واضطرابك، كل ما فيك يكشف سرك، وإلا فأين تلك الابتسامة الدائمة التي لا تفارق وجهك؟

ـــ ان حدسك في محله ـــ يامولانا ـــ والنجاة في الصدق ـــ فهل تعدني بالتمعن فيما سأعرضه عليك، والعفو علي ان أخطأت؟

ـــ اعدك ياهلال، تكلم؟

ـــ لا أدري، يامولانا، هل أوجز أم أطنب، ذلك ان عوامل كثيرة تدفعني إلى مصارحتك بأشياء تدور في رأسي كأنها شياطين مسحورة تسلِّط علي سياطا لاسعة ولقد فكرت كثيرا، وأصابني الأرق طيلة ليالي عديدة، بسبب هذا السر الذي أحمله، وكان ضميري يخزني ويؤنبني على كتمانه، وكنت في كل مرة أقرر عرض الموضوع عليك، لكنني أخشى أن أُوصف بالواشي، أو أن أتهم بالتملق والتزلف، فأعدل عن ذلك.

ولم يزدني السكوت إلا تعميقا في جروح القلب واستنزافا لدمائه. والآن، وقد دفعتني أنت، يامولانا، إلى ذلك دفعا، وعاهدتني بالاستماع إلي، والتمعن في كلامي، أجد نفسي مجبرا على مصارحتك.

ـ أرأيت كيف كان ظني في محله ؟ هيا اسرع، فقد أطلت علي وزدتني شوقا إلى معرفة ما تخفي بين جنبيك.

ـ نعم سألج البيت من بابه الرئيسي، وأتناول الموضوع من أوله. كان ذلك منذ مدة عندما جاءني ـ يامولانا ـ الوزير أبو عبد الله محمد بن أبي مهدي الهنتاتي وأخذ يختبرني ويذكرني بالصداقة المتينة التي تربطنا ببعضنا، وبالعامل المشترك الذي يجمعنا في اتجاه واحد، وهو خدمة بني حفص، والتفاني في ذلك، فعلمت أن لهذه المقدمة أسبابا ونتائج.

ـــ ماذا كان يريد منك ذلك اللعين ؟ أكان ينوي ضمك الى صفه ؟

ـــ هو غير ذلك ـ يا مولانا ـ لقد طلب مني يومئذ ان اتصل بك ـ لما عهده الجميع فيَّ من اخلاص لك ، وتصديقك لي ، بعد ان خضعت لتجاربك مدة طويلة وتبين لك اخلاصي ووفائي ـ راجيا منك العدول عن ابعاد اقاربك عن الحكم وتولية امور الدولة اشخاصا قتلهم الطمع ، وتعددت نواياهم السيئة ، واتسعت آمالهم ، وداعيا اياك الى التفطن الى كل ما يجري حولك من دسائس تحاك في جوف الليل وتحت اجنحة الظلام لتنفذ بغدر وخيانة في الغد . ووعدته بذلك ـ يا مولانا ـ تعلقا بك وحبا في سلامة هذه الدولة .

ـــ نعم ! انني اذكر انك اتيتني مرة ، وكلمتني في موضوع كهذا ، لقد طال العهد ونسيته .

ـــ هو ذلك ـ يا مولانا ـ لقد اتيتك وشرحت لك



الموضوع، وبينتَ لي تخوُّفك من طموح اقاربك وادعائهم يوما ما بأنهم أولى منك بأمر الحكم، وأجدر بالإمارة.

وخابت آمالي، وخابت معها آمال الوزير بعد أن فاز المخادع ظافر بودِّك وثقتك، وعمل سرا على ابعاد كل مصلح عنك، لينفرد هو بثقتك، خدمة لمصالحه الخاصة، وآماله العريضة، ورغبة منه في تولي الوزارة وأعتقد أن ذلك لا يمثل منتهى طموحه.

فالمناصب تغري، وطموح الانسان ليس له حدود - يامولانا - ونفس الطامع لا تتصور الخيبة.

وأخذ يثير غضبك ضد وزيرك، وينتقص أفعاله ويصغِّرها في عينيك، ويعظم هفواته البسيطة العفوية البريئة، حتى تحتقره وتعزله وتوليه خطته.

غير أن أملي لم ينقطع، وعزمت على الصبر، ومواصلة اقناعك كلما سمحت الظروف.

ولكن نجم ظافر كان في صعود مستمر، وآماله على وشك

التَّحقق، وداخلك الشك في وزيرك، وشعر هو بذلك، فخاف على نفسه، والنَّفس عزيزة، والتحق بابن عمك ابن أبي عبدالله اللحياني المغضوب عليه، وهكذا أبعد الاقارب المحبُّون وتولى أُمور الدولة الدخلاء والطامعون والحاقدون.

_ هل أصبحت تدافع عن الأَشرار والمجرمين يا هلال ؟

_ عفوك _ مولانا _ ذكرت ذلك لأَنك سمحت لي بالكلام، بل أَجبرتني عليه، ولولا وعدك ما فهت بحرف واحد.

_ هيَّا؟ واصل كلامك لأَعرف هدفك وغايتك ؟

_ إنه هدف نبيل، وضميري مرتاح لذلك؟

_ هذا حكمك أَنت ؟

_ بل حكم الحق والواقع ! وثق _ يامولانا _ أَن تلك المؤامرة لم تكن تستهدفك، بل كانت ترمي إلى

تصحيح الوضع وتقوية جانبك، واغفرلي إن قلت لك أن الذي دفع هؤلاء، بعد ان التحق بهما من التحق، الى تلك المؤامرة ، هو تسلط الذئاب والثعالب على دفّة الحكم، وتضليلهم لك حتى أصبح شعارهم النّاب والمخلب والسيف.

وسكت هلال متظاهرا بالانشغال في تنظيف المائدة المنتصبة أمام الامير أَبي عبد الله ابن أَبي زكرياء الحفصي، ونظر خفية من زاوية عينه دون أن يلتفت إلى الأَمير ليرى مدى تأثير كلامه في نفسه، فلاحظ الانفعال باديا على وجهه رغم وقاره فقال في نفسه :

— لن يفلت اللعين ظافر من قبضتي هذه المرة .

ثم واصل كلامه قائلا :

— لقد اتهمني صديقي الوزير أَبو عبد الله بـأَنني خائن ، لا أعمل لفائدة بني حفص ولمصلحتك أنت بالذات وقال لي :

— اِبق هنـا ، وسيبقى معك الكثيـرون ، لأَنكم

تريدون البقاء فقط ، البقاء من أجل البقـاء لا غير ، وستهاجمكم الذئاب المتعطشة الى الدماء ، وستنشب مخالبها فيكم، وتفتك بكم .

ولما حاولت إقناعه تظاهر بالاقتناع ، ولكنني شعرت أَنه يخفي وراءه شيئـا انكشف لي عند التحـاقه بالمتآمرين .

وعلمت أَن المرحوم عمك ، ذلك الرجل الطيب الذي تقوده الفضيـلة والمحبة ، قد حـاول منع ابنه عن هذه الفعلة الدنيئة وصده عنها ، فلم يستمع لنصائحه نتيجة ما لحقه من ضيـم ، وأَسرع ذلك العم الطيـب القلـب إلى إبلاغك ما اعتزم ابنه من شنيع الافعال ، كما أبلغك بذلك أيضا القاضي أبو زيد التوزري ، ولم يبخل غيره بإسداء النصيحة .

والتحق العصاة بالمشاغبين ، وكانوا زمرة جمعت الطـامعين والحاقدين وبعض المصلحين ، واضطررت إلى ضربهم بيد

من حديد ، وايقافهم عند حدهم ، وكفهم عن عبثهم. فأرسلت إليهم جيشا قويا ليقضي عليهم ، ويقطع دابرهم حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر.

ولا تنس ، يا مولاي ، أن ظافرا كان قد أعد العدة لكل ذلك ، وأظهر لك من الإخلاص المزيف ما دعاك إلى أن تختاره دون غيره من القواد ، وتعينه قائدا على هذه الحملة التأديبية ، ورأى أن الوقت يخدم ركابه وأن الظروف تساعده ، وعلم أن هذه هي الفرصة الثمينة التي كان يترقبها ليتخلص من مزاحميه ومن محبيك ، مدعيا أن كل ما يقوم به إنما هو خدمة لك ، تمثيلية أتقن أداء أدوارها .

والتحق الجيش الذي يقوده ظافر بالعصاة ، وأدخل في صفوفهم البلبلة ، واشترى بمالك ضمائر بعضهم عوض إقناعهم ، وأعمل في رقابهم السيف حتى قضى عليهم.

وتوقف هلال عن الكلام ورفع يده يمسح دمعة حرّى صامتة نزلت على خديه، واسترسل في كلامه قائلا :

إن ظافرا ـ يامولانا ـ شجرة لا تنبت غير الأَشواك ولا تنتج غير الآلام، لكن لو توقف عند هذا الحد، لكان بذلك الشخص المخلص حقا ، لكن تعطشه للدماء، ورغبته في التخلص من كل مخلص لك، وخاصة من أقاربك كي يتركك وحيدا لا مساعد لك فيما بعد، يفعل بك ما فعل غلمان الفرس والأتراك ببني العباس، هو ما دفعه إلى أن يقتحم منزل عمك الشيخ محمد اللَّحياني، ويجره من لحيته،وينهال عليه بالعصي والسياط،جالدا جسمه بضربات قوية حادة، ولقد حاول المسكين بكل صمت وصبر أَن يتجنب الضربات التي لا ترحم ، وكان يستغفر الله لك كلما وقع عليه سوط، أَو سالت منه قطرة دم، ويمد يده إلى وجهه ليمسح الدم السائل بحرارة وغزارة، لكنه يخفق ، فالقيود والأغلال تحول دون ذلك ، وتتكرر

المحاولات ، وتنهال الضربات بدون رحمة ، ويتورم جسمه ، ويتألم في صمت ، ويردد بلهجة المتوسل : بريء والله بريء ، ثم يعجز عن الحركة ، وتتضاءل الرؤية أمام عينيه فلا يرى غير أشباح بل شياطين تنهال عليه بالسياط تلسعه وتدميه، ويتلاشى الصوت وتجمد الكلمات في فمه، وكانت النهاية المرعبة المحتومة ، فيقطع رأسه ، ويلقى ببقية جسمه ، فتتقاطر عليه الصبية ، تجر تلك الأشلاء، وتعبث بها، وترشقها بالحجارة وتعفنها بالقذارة.

ذلك هو عمك البريء ــ يا مولانا ــ إن دماءك دماؤه، وعائلتك عائلته، لقد خسرنا عزيزاً علينا يصعب تعويضه، ولا نملك الآن أكثر من تذكره بكل حسرة وأسى، ذارفين عليه الدموع الغزيرة . ألم يكن متحمساً لك فأخذ لك البيعة من العامة والخاصة ببونة (عنَّابة) ليلة الجمعة الثاني والعشرين جمادي الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة (4 أكتوبر 1249م) ؟

أليس هو الذي جدد لك البيعة بعد وصولك إلى تونس يوم الثلاثاء الثالث لرجب من نفس السنة وكنت ابن اثنتين وعشرين سنة فقط؟ فلو كان لهذا الشيخ البريء طمع لاغتنم فرصة موت المرحوم والدك، وارتمى على الحكم قبل أن تتولاه، بل لارتمى عليه منذ وفاة المرحوم جدك. فأنت تعلم أن المرحوم عمك أكبر سناً من والدك..! هذه هي أعمال ظافر، يا مولانا، إن الذي يخدمك بإخلاص، لايقدم على إقامة مجزرة في عائلتك ويلحق بعمك أخاه أبا إبراهيم ابن الشيخ أبي حفص وابنه، وينتهب منازلهم ويخربها، ويأتي برؤوس هؤلاء إليك ويعرضها عليك متباهياً وكأنه يطلب منّة وجزاء.

ومن هؤلاء ـــ يا مولانا ـــ؟ أليس والدهما والد أبيك؟ ألم يكونا أخوي المرحوم والدك؟ أنسيت المخالصة والمصافاة التي كانت بين الإخوة الثلاثة؟ أنسيت كيف دعموا جميعهم أركان هذه الدولة وشيدوا صرحها

وأعلوا كعبها ؟ إنهم ـــ يا مولاي ـــ ضحايا سرطان الحقد والطمع والأنانية ، ولا يخفى عليك أنها عملية خبيثة ، الغاية منها نسف صرح هذه العائلة ، ووأد عظمة هذه الدولة .

وتوقف هلال عن الكلام عندما صوَّب له الأمير أبو عبد الله الحفصي نظرات حادة كأنها سهام تخترقه ، فارتبك قليلا ثم بلع ريقه ، وواصل كلامه قائلا :

ـ مولانا ـ لستَ مجبراً على أن تعتبر كلامي هذا عين الصواب ، فلك أن لا توليه أي اهتمام ؟ لكن اسأل مستشاريك وقضاتك ووزراءك لتتبين الأمر، وتتعرى الحقيقة فتنكشف لك واضحة كوضوح الشمس وينتصر الحق على الباطل ، ثم استسمح لنفسي بأن أذكِّرك ببعض توجيهات المرحوم والدك أَبي زكرياء : « متى فاجأك أَمر مقلق أَو ورد عليك نبأ مرهق فريِّض لُبَّك ، وسكّن جأشك ، وارع عواقب أمر تأتيه وحاوله قبل أن ترد عليه وتفشيه،

ولا تقدم إقدام الجاهل ، ولا تحجم إحجـــام الأخرق المتكاسل ، واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله ، وقصر عن مقاومته رجـاله ،فمفتـاحه الصبر والحزم ، والأخذ من عقلاء الدولة ورؤسائها وذوي التجارب من نبهائها ، ثم الإقدام عليه ، والتوكل على الله فيما لديه ، ولا تلحق الحقير بالكبير فتجرّيء الحقير على نفسك ، وتغلطه في نفسه » .

وما كاد هلال ينطق بالجملة الاخيرة حتى تهدَّج صوته وخنقته العبرة فسكت عن الكلام ، وقد رأى من الأمير أبي عبد الله بن أبي زكريا الحفصي تأثرا وإصغاء .

وتحركت في نفس هلال روح الصداقـة التي كانت تربطه بالوزير المقتول أبي عبد الله الهنتاتي ، ثم برزت له صورة ظافر الطموح ، فداخله الخوف ، وأشفق على نفسه منه ، إذ سيأتي دوره لا محالة ، فظافر أخذ يحصد كل من اعترض طريقه حصدا ، فانفجرا كيا .

وكان كلام هلال كافيـا لكي يزج بالأمير في عاصفة من الغضب الشديد، والانفعال الكبير، والتأثر العميق، فانفجر غيظه، وصرخ في وجهه قائلا :

ــ كفى ضعفا ؟ اخرج عني ؟ اغرب عن وجهي ؟

ويخرج هلال مولى الأمير الحفصي وهو يقول في نفسه :

ــ لقد تهدَّم الآن الجدار الذي كانت تختبىء وراءه الجرذان وظهرت حقيقة المزيفين . . .

ويقف الأمـير الحفصي ، ويذرع القـاعة الفسيحة ذهابا وإيابا صارخا :

ــ سأُطهِّر من رجسكم الأرض... سأسدُّ أمـامكم الأبواب والمنـافذ أيتها الذئاب الجائعـة ، المتعطشة إلى كل رذيلة ... سأصدكم عن المضي في طريقها . . . لن أكون شريككم فيها . . . ويل لهذا الحقير ظافر ، سوف يتطعم بطشي ويتذوّق عذابي . . . لقد شوّه لي الحقيقة وأظهرهم لي في مظهر المتآمرين المجرمين ... لقد كان صندوقا مغلقا

طلاؤه بريق وجمال وداخله خبث ومكر ... سأنتقم منه شر انتقـــام بل سأمثل به . . . سأتولى تسيير كل شيء بنفسي . . . لن أثق بأحد منكم . . .

كيف يحدث كل ذلك وأنا في غفلة عنه . . . ؟ لقد ذكر الملعون هلال الحقيقة . . . أي جرم شنيع اقترفته... لقد قُتل بأمر مني من أخذ لي البيعة وساعدني لأصبح أميراً . . . . لقد قتلت عمَّيَّ وابنيهما . . . كيف أنسى طفولتنا ، أيام صبانا ، محبتنا لبعضنا . . . . ؟ كيف تنكروا لي وتنكرت لهم . . . ؟ كيف دارت الأيام ونسيت ذكرياتنا العذبة فيقررون قتلي وأقرر قتلهم . . . ؟ ما هي أسباب ذلك وما الدوافع . . ؟ مـــاذا فعلت يا إلهي . . . ؟ كيف أكفر عن ذنبي . . . ؟ لقد أثرت في نفسي الكلمة المعسولة ، وغلبتني الدسائس المحكمة بمهارة... كان عليَّ أن أعرف الحقيقة . . . ؟ وأتفطن إلى نواياه الحقيرة . . . ؟ أي حكم قاس سيصدره عليَّ التاريخ . . .



إلهي ! إنني أشعر بصداع حاد كأن المطارق تنهال على رأسي بدون رأفة ولا رحمة . . . ويمسك الأمير رأسه بين يديه، يضغط عليه بشدة علّه يخفف من ذلك الصداع ، ويطرق مدة ، ويطول إطراقه ، وتهدأ ثورته قليلا فيعتدل، ويخاطب نفسه كالهامس : لقد فرطت . . . وهذه عاقبة التفريط . . . على أنَّ العاقل لا يقنط ولا يدع العقل والجهد بل عليه أن يتدرّع بهما في مثل هذه المواقف . . . سأتولى من الآن إدارة كل شيء بنفسي، وإن كنت قد أذنبت خطأً فسأكفر عن هذه الذنوب بنشر الرفاهية بين أفراد الأمة ، والضرب بشدة وقسوة على أيدي العابثين، حتى أجعل من دولتي أعظم دولة . . .

الفصل الثاني

كان الظلام مخيماً على مدينة تونس عاصمة الحفصيين ، والشوارع خالية من السابلة إلا من بعض العسس وشبح متأزر غير متميز الملامح، يجتاز الدروب والمسالك اجتياز العارف الحاذق ، حتى انتهى إلى بيت القائد ظافر .

لم يكن ذلك الشبح غير جارية متنكرة من جواري الأمير أبي عبد الله الحفصي ، تعلقت بظافر ، وحملت نفس الطموح، وتمنت نفس الأماني، وسطرت معه عديد الخطط . ومن يدري فقد تجد سبيلا يدنيها إلى العرش فتصبح سلطانة أو أم سلطان ، تتبارى الجواري في خدمتها إن التاريخ حافل بالأمثلة عن جوار أصبح لهن شأن عظيم . ومن تكون والدة الأمير أبي عبد الله الحفصي ؟ أليست جارية رومية أصبحت اليوم الآمرة الناهية ؟

لقد استمعت من وراء الستائر المسدلة إلى كل ما دار بين الأمير الحفصي وهلال ، ولاحظت شدة غضب الأمير وتوعداته ، فأسرعت لتنقل كل ذلك إلى ظافر، واستقبلها هذا بدهشة وتعجُّب ، إذ ليس من عادتها أن تأتي في مثل هذا الوقت إلا في أمر جليــــل ، ولاحظ اضطرابها واصفرار وجهها وشدة جزعها ، فاستفسرها عن الموضوع فقالت له لاهثة :

ــ انج بنفسك من هلاك محقق ، لقد افتضح أمرك ووشى بك هلال المولى ، فتوعَّدك الأمير .

اضطرب ظافر وامتقع وجهه فأطرق لحظة باحثا عن مخرج ولمعت في ذهنه فكرة فقال:

ــ سألتحق بقبيلة الذواودة القاطنة بنقاوس بسفح جبال أوراس المنتصبة كأنها أنياب الأسد.

ــ ومن هي هذه القبيلة ؟

ــ هي من أشد القبائل العربية بأسا وأعزها نفسا ،

وأقواها شكيمة ، لم يتعود أفرادها الهدوء ولم يركنوا للسلام ولم يستكينوا للغلبة.

ولطالما ثاروا على الحفصيين وأيدوا سابقا ابن غانية أمير جزر البليار آخر معقل للمرابطين الذين قضى عليهم الموحدون.

وخرج ظافر متنكرا في زِيِّ التجار ، واتصل بالذواودة آملا في تحقيق طموحه ومتحينا الفرص لينتقم من غريمه هلال .

★ ★ ★ ★ ★

ومرت السنون وظافر مع الذواودة صابر ينتظر الفرص ، وصادف فرار الأَمير أَبي إسحاق إبراهيم بن أَبي زكرياء الحفصي أَخي السلطان من الأَب ، متنكرا لأَخيه ثائرا عليه ، مطالبا بالإمارة لنفسه وقد حرضته والدته « رُوَيْدَا » وهي أُم ولد رومية الأَصل ، لترتفع منزلتها فوق منزلة ضرتها « عطف » الرومية والدة أَبي



عبد الله ، وقد اغتنم فرصة تغيب أخيه السلطـــان ، فالتحق بـالذواودة الذين بـــايعوه سنة إحدى وخمسين وستمائة (1254 م) . وكان الذواودة مستعدين لمبايعة كل من يعمل على تقويض أركان دولـة أبي عبد الله الحفصي، خاصَّة وقد وعدهم أبو إسحـــاق بالمناصب العليا ورفع الضرائب عنهم .

وكان ظافر يتصيد مثل هذه الظروف ، فانضم إليه وأيده ، لا محبة فيه وتأييداً له ، بل رغبة في الانتقـــام والتشفي ، وقصدوا بسكرة وحاصروها ، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي بن الحسن* من مشيختها ، وتآمر عليه الملأ ليقتلوه لأنهم اعتبروه خائنا ، ففر إلى أبي إسحاق وجماعته وصار في جملتهم ، وشدَّدوا الحصار على بسكرة، فبايعه أهلها ، ودخلوا في طاعته ، ثم ارتحلوا إلى قـابس فنازلوها ، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب ، وأهم السلطان شأنه وشأن ظـــافر صاحب الدسائس ومخطط

الخطط ، فقبض على ولد أبي إسحاق وحبسهم جميعـــا بالقصبة .

ولعبت المرأة دورها في هذه القضية وأفلتت الفرصة من ظافر ، فقد أفسدت أخت الأمير أبي إسحاق بين ظافر وأخيها ، وأرسلت إليه ناصحة بأن يتنكر لظافر ، ويلتحق بالأندلس فاستحسن أبو إسحاق رأي أختـــه إذ فكر في أمره فرأى أنه لن يكسب تأييد أهل تونس مـــا دام معتمداً على الذواودة وظافر .

فأهل تونس يحتقرون الذواودة ، هذه القبيلة العربية التي اعتمدت في عيشها على السلب والنهب ولم تشأ الخضوع لحكم تونس ، ويكرهون ظافراً الذي كان سبباً في إراقة دماء عدد من الأبرياء والفضلاء

فعزم على الرحيـل ، والتحق بالسلطـان ابن الأحمر ملك غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس فرعى له عهد

أبيه الأمير أبي زكرياء الحفصي مؤسس الدولة الحفصية ونجدته للمسلمين بالأندلس ، فأكرم وفادته ، وأسنى له الجراية ، وعاش معه مجـــاهداً مكافحاً للنصارى ، دائب التفكير إذ أين هو من أخيه الذي ينعم بالجاه والسلطان وهـو المنفي البعيد عن الأهل والأقارب .

لما بلغ إلى الأمير أبي عبدالله الحفصي خبر عبور أخيه إلى الأندلس فكر في وجه الحيلة حتى يدرأ شره بالإحسان إليـه ، فأخذ يتـاحف ابن الأحمر ويهـاديه ، ويرسل إليه الأموال الكثيرة ، ويوفد إليه الرسـل ، مصـانعة له في شـأن أخيه واستجلاء لحاله ، وبذلك حقق صداقة ابن الأحمر وتمكن من مراقبة نشاط أخيه .

أمـا ظافر فقد فشل في تحقيق مـآربه وتمـكن منه والي بجاية بإيعاز من السلطان جزاء أعماله ودسائسه .

وأرسل الأمير أبو عبدالله الحفصي جيشـا لتشتيت

جموع الذواودة الذين توقفوا الرد الفعل ثم ارتدوا منهزمين ولم تنقذهم غير الفيافي الشاسعة بعد أن قتل رؤساؤهم واستريح من شغبهم .

الفصل الثالث

اعتدل أحد العملة، ومسح العرق المتصبب على وجهه المغبر ، وتناول إناء الماء الذي كان بجانبه ليطفىء ظمأه ، واتكأ على آلة الحفر ليستريح قليلا ، والتفت إلى زميل يتثاقل في عمله فيشتغل مرة ويستريح مرات ،ليقول له :

ـــ لقد أنعم علينا المولى بهذا العمل ، حتى نكتسب قوتنا وقوت عيالنا .

وتوقف صديقه بدوره عن العمل ورد في تبرم بعد أن زفر زفرة عميقة :

ـــ من أين جاءت النعمة ؟.. إن الأتعاب تخدر أجسامنا المتورمة .. ألسنا نشتغل من طلوع الشمس إلى غروبها في عمل شاق منهك بأجر زهيد ، ليتمتع غيرنا ؟..

ـــ على كل هذا أحسن من البطالة ، احمد ربك يا هذا ! إن الذين يشتغلون في الحفر والبناء والترميم

يعدون بالآلاف ، وإن كل واحد منهم يستطيع الآن أن يعيل عائلته لمدة طويلة ، فهذا الممشى الذي نبنيه — والذي هو عبارة عن حائطين يبعدان عن بعضهما عشرة أذرع ويرتفع كل واحد منهما عشرة أذرع أخرى — سيصل القصبة برأس الطابية ثم برياض أبي فهر بأريانة ، وهو عمل يتطلب إنجازه سنوات عديدة ويقتضي عددا ضخما من العملة ، ثم سيمكن العديد من المؤسسات التي تزودنا بآلات الحفر ومواد البناء من الإنتاج الوفير والازدهار ، وستكون حركة تجارية نشيطة ، وستزدهر الأسواق ويعمّ الرخاء .

— وما هو نصيبك من كل ذلك ؟.. أأنت الذي سيسكن هذه القصور ؟.. أحريمك هو الذي سيحتجب خلال تنزهاته في هذا الممشى ..؟ أأنت الذي ستعود إليه أرباح تلك الأسواق المزدهرة ؟..

— إنني أعرف أنك إنسان لا يحمد النعمة ولا يقنع بما رزقه الله ...!

— وأنا أعرف أنك من أولئك الذين يكذبون على أنفسهم ويرضون بالدُّون ...

— يا أخي كن واقعيا ، وتذكر الحالة التي كنّا فيها ..؟ لقد كان الرجل فينا يتهرب من الضيوف لفقره ، إذ قد لا يجد عنده ما تتعشى به عياله وأطفاله ، وإن كان عند هم ما يتعشون به فإن الضيف قد يضيق عليهم في عيشهم : هندامنا رث ، قوتنا ناقص ، مسكننا بسيط ، واليوم بإمكانك أن تقصد أيًّا شئت فإنك تجد عنده خبزا شهيا من القمح ، وزيتا طيبا ، وزيتونا فاخرا ، وقد يذبح لك خروفا من غنمه ، ويفرح بك وتدخل عليه المسرة . . .

أتذكر كيف كنّا ننظر إلى بعضنا نظرة الغرباء رغم الرابطة الأخوية التي تشدنا ؟ أنسيت كيف كنا نرتاب في

كل شيء ولا نطمئن لاحد ؟

واستمر الحديث بين العاملين عن العمل المتواصل الحثيث لبناء الممشى ، وعن الأشغال الجدية لترميم الحنايا وإصلاح ما فسد منها بفعل السنين منذ أن بناها الرومان لتجلب المياه العذبة من جبل زغوان إلى قرطاجنة وقد تعلقت رغبة الأمير أبي عبد الله الحفصي في إعادة جلب المياه من نفس المنبع إلى قصر أبي فهر بأريانة وريّ رياضه وأحواضه ، ومواصلة بناء الممشى من قصر رأس الطابية إلى قصره هذا الوحيد من نوعه .

وكان قد جلب لبناء هذا القصر الفخم الجميل أبرع النحاتين والمهندسين في عهده، وغرس فيه أشجار الفواكه، من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب والتفاح والليمون والبرتقال وغيرها من الأشجار المثمرة، إلى جانب أشجار الزينة كالسرول والريحان والياسمين، وتتعانق هذه الأشجار الباسقة فوق أزقة مبلطة مطعمة

بأحجار ملونة ، كوّنت بعضها رسوما جميلة .

وبين مروجها تنبت نافورات تدفع الماء إلى ارتفاعات تبلغ بضعة أمتار ، فتتساقط مياهها رذاذا تتلاقف منه الرياح مقدارا ، وينصب الباقي في أحواض بعضها فوق بعض ، وزرع أنواعا مختلفة بديعة من الزهور ، ونظم كل صنف منها في جهة تسقيها القنوات العديدة ، وجعل وسط هذه الرياض بركا وأحواض ماء مجلوب عن طريق الحنايا من عيون زغوان ، تسلك بطن الأرض في أماكن ، وتركب البناء العادي ذا الهياكل الماثلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة والأعمدة العتية في أخرى ، وتنصبُّ هذه المياه في تلك البرك العظيمة ، وتنعكس عليها أشعة الشمس الساطعة فتزيدها جمالا ورونقا تخالها اللجين ، وتصبح منتزها لحريمه وأولاده تنساب فوقها الزوارق .

وشيَّد في هذه الرياض القصور الجميلة القائمة على

أعمدة رخامية مجزعة منجدة ، وابتنى غرفا من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار .

وفي هذه الرياض كان الأمير أبو عبد الله الحفصي يقضي أجمل أوقات فراغه ، يستنشق عليل النسمات ، ويسعد بأمتع اللحظات في جو منعش سحري ، ويستوحي أعظم الأفكار ويصمّم أحكم الخطط ، ويقدم إليه أمهر الغلمان ما لذّ وطاب من خيرات هذه الرياض ، يهرعون لتلبية رغباته من أول إشارة ، ويتسابقون في خدمته ويتبارون في تقديم فروض الطاعة والولاء.

هناك بين أحضان هذه الطبيعة الهادئة ، ووسط هذه المروج الخضراء ، والأزهار الفواحة ، يجتمع الأمير الحفصي بخاصته وجلاسه من خيرة أدباء وعلماء إفريقية والأندلس ، يروون النوادر ويتبارون في قول أجود الأشعار ، ويتباحثون في أحدث ما ظهر في مجال العلم والمعرفة ومسائل الجدل التي يشتد حولها

الخلاف حينا بين الحاضرين ثم يجتمعون في النهاية على رأي الأمير

مناظر جميلة خلابة أنطقت قريحة الشاعر حازم بن محمد بن حازم القرطاجني فقال :

وانساب في قصر أبي فهر الذي

لكل قصر في الجمال قد زرى

قصر تراءى بين بحر سلسل

وسجسج من الظلال قد صفا

بحيرة أعلى الإله قدرها

قد عذب الماء بها وقدرها

وقال :

وجرية الماء تبدي صوغ سلسلة

تنهي إليك بها إذعان منقاد

لتغلبن أمير المؤمنين بها

فرات فارس أوغورا ببغداد



وقال ايضا :

فقال : «أبو فهر» ولم يدر قدره
وإن جاء وفد الماء قال أبو نهر

وعلم أمير المؤمنين وجـــوده
به كل يوم ، فهو حقا أبو بحر

لم تقف حركة البناء والتعمير عند هذا الحد بل تجاوزته إلى بناء المصانع العديدة والمصائد الشاسعة والمساجد الكثيرة والقصور الجميلة والجسور المعلقة والطرقات الطويلة في مختلف الجهات والأنحاء.

ولقد قضى أبو زكرياء يحيى الحفصي ، مؤسس الدولة الحفصية وباني كيانها على الفتن والمشاكل ، وترك الأمور ممهدة لابنه أبي عبد الله الذي انصرف للبناء والتعمير ، وبذلك أثرت البلاد في عهده وعمها الرخاء والازدهار .

وهاجر عدد كبير من الناس ، مجتهم القرى ،

وألقتهم الأرياف ، فاحتضنتهم مدينة تونس التي أصبحت لأول مرة في التاريخ عاصمة ، بعد أن تبوأت هذه المكانة مدينة قرطاجنة في عهد الرومان ، والقيراون في عهد الدولة الأغلبية ، والمهدية في عهد الدولة الفاطمية ، وازدهرت أسواقها ، وأصبحت دكاكينها تزخر بالسلع المتنوعة ، وكثرت صناعاتها ، وتعددت أنواعها ، والإنسان في كل ذلك ومن كل ذلك يسعد ويتمتع وينعم .

كانت تونس مطمح الآمال ومحط الرحال من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك ، وناظمة فضائل البر والبحر في سالك ، فإن شئت أصحرت في موكب ، وإن شئت أبحرت في مركب ، كأنها ملك والأرباض لها إكليل ، وأوجاؤها روضة باكرتها ريح بليل ، لا تنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها ، ولا تلتمس بها بغية معوزة إلا استفدتها .

وأهلها ما بين عالم كالعلم ، رافع بين أهله العلم... وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان. والرخام بها كثير، وأكثر أبواب دورها معمول به عضائد وعتبا ، وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل ، ولها أبواب عديدة ، وكل باب منها ربض متسع على قدر بلد مستقل ، فقد أربت هذه المدينة على البلاد في كل فضيلة ، ولا ترى لأهلها نظيرا شرقا ولا غربا ، خفة روح وحلاوة بادرة،شيما فاضلة وخلالا حميدة ، وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب ، يبدؤون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه — بفضل طباعهم — المواصلة ، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق ، ولولا هذه المدينة لمحي العلم في المغرب وضاع حظه ، فما من فن من فنون العلم إلا وجدت في تونس به قائما ، ولا مورد

من موارد المعارف إلا رأيت حوله واردا وحائما».

تلك هي تونس عاصمة الحفصيين التي اكتظت بالسكان النازحين إليها من مختلف المدن والقرى التابعة للدولة الحفصية طالبا للرزق ، والمهاجرين إليها من الأندلس احتماء بها بعد أن نكبهم النصارى الإسبان فسلبوهم أرزاقهم وافتكوا مدنهم ، وقضوا على ممالكهم ، والهاربين من عذاب أمير صقلية ومالطة بعد أن ضيّق عليهم الخناق وحاصرهم وأطردهم ، فوجدوا كلهم في تونس الملجأ والموطن وفي الدولة الحفصية المعين والمضيف .

وانسجم الشعب وتآخى أفراده ، واهتم كل واحد بمهنته ، ينميها ويحسنها ويهذبها ، وأصبحت أرض تونس زاهية ، أشجارها مثمرة

وأزهارها، يانعة خضراء تتباهى بجمالهـــا وتنتظر مولودها السعيد وإنتاجها الوفير .

وتأنق الناس في لباسهم، فلبسوا الحرير الموشى والمطرز، وجملوا مبانيهم فسكنوا بيوتا رحبة تتوسطها النافورات وتحف بها البساتين الغناء ، وانتقوا أحسن الجياد وأفخر العربات لركوبهم وتجوالهم ، واختاروا أجمل الأواني ، وأدخلوا في الزراعة الريّ القائم على أسس علمية ، وجلبوا نباتات جديدة لم تكن معروفة ، وكثرت البساتين والحقول حول مدينة تونس برأس الطابية وأريانة والمرسى ورادس وغيرها واهتموا بغراسة الزيتون والنخيل . حركة شاملة ونشاط مستمر جعلا من هذه الأرض الجرداء البور أرضا معمورة خصبة فأصبحت حقول الحبوب لاتكاد تحدها الأبصار وقطعان الحيوانات لا يحصرها عدّ .

وتعددت الحرف واختصت كل حرفة بسوقها ،

وقامت هذه الأسواق بدور الإنتاج والتوزيع، فهذا سوق العطارين وذلك سوق الحدادين وثالث سوق السراجين ورابع سوق القماش، وأنشئت الرحبات الواسعة يشتري فيها الناس ويبيعون، ونظموا كل ذلك حول جامع الزيتونة المعمور حتى لا تفوتهم فرص التعبد، وشجع الحفصيون على الاتصال بالشعوب المجاورة عن طريق البر والبحر، فعقدت المعاهدات والاتفاقيات ونشطت حركة التبادل التجاري، وازدهرت الثقافة، وتغذت بتلاقح أفكار المواطنين والوافدين على البلاد من الأندلس وصقلية والشرق العربي، وتفتحت القرائح، وانبعث التزاحم البريء، وتزاوجت العادات والتقاليد، وتغنى الناس بالموشحات الأندلسية الجميلة، وتولدت حضارة مزيج من حضارة إفريقية والأندلس والشرق الإسلامي وعصارة ما أنجبت عقول سكان تلك المناطق.

والتقى هلال الذي أصبح قائد الجيش مكان ظافر

متمتعا بمكانة مرموقة لدى الأمير أبي عبد الله الحفصي بمولاه فقال له :

ـ أرأيت يـا مولانا كيف أصبح لدولتك هيبة واحترام وتقدير ، بعد ان مسكت بزمام الأمور وضربت على أيدي العابثين ، وحققت ما اعتزمت تنفيذه وتعهدت به غداة تنكرك للطامعين والوصوليين من إصلاح وتشييد وتعمير لفائدة شعبك الوفي ، وشجعت العاملين منه بجدّ ، وزرعت فيهم المحبة والوفاق والطهر والإخلاص والتعاون والنشاط ، فكان زرعا أنجب خصبا وخيرا عميما .

ـ إن ما قمتُ به يا هلال غير كاف ، والأعمال العظيمة تنتظرنا ، فلقـد وهبت حياتي خدمة لهذه الأمة ، علّني أُكفر عن ذنوب تثقل كاهلي ، وتخنق أنفاسي عندمـا أتذكرها وهي قتلي لعمّيّ وابنيهما رحمهم الله جميعـا .

ـ لا تفرط في تعذيب نفسك ـ يا مولانا ـ

بالتذكر والنّدم ، فأنت لم تقم إلا بما كنت تعتقده صوابا ، والشّرُّ يدفع بمثله إذا أعياك غيره ، والقتل أنفى للقتل ولولا ذلك لا ستضعفك النّاس وثاروا عليك ، وتدهورت الأمور وانحلت هذه الدولة التي اجتهد المرحوم والدك في تركيز دعائمها .

الفصل الرابع

صعد هلال إلى شرفة قصر أبي عبد الله الحفصي بالقصبة بعد أن قال له مولاه :

ـ يا هلال ! انظر كيف الناس في الخارج ؟

ثم رجع ليخبر سيده بأن الجمع قد التأم ، وأن الوزراء والقواد والقضاة والأعيان في ملابسهم الجميلة قد أخذوا أماكنهم ، وأن الجنود قد وقفوا صفوفا منتظمة في زيهم الرسمي الجميل ، وأن الطبول تدق ، والأعلام قد ارتفعت في كل مكان ، وأقواس النصر قد انتصبت في كل جهة ، وواجهات الدكاكين وبيوت السكنى قد حفلت بالزرابي تزينها وتجملها ، والناس قد اجتمعوا وكأن لم يبق في المدينة أحد لم يحضر هذا الاجتماع العظيم ، ويشارك في هذا الاحتفال الباهر ، وأنه لا يوجد موطئ قدم خال من الناس ، والجميع يترقبون ظهور الأمير العظيم

بفارغ صبر وقد علا وجوههم البشر وغمرتهم الفرحة .

ظهر الأمير في لباسه الفاخر ، وقد بدت عليه علامات العظمة ، ومشت خلفه مجموعة من الحراس والخدم ، ووقف من كان جالسا احتراما للأمير وإجلالا له ، وارتفعت الأصوات هاتفة بحياته ممجدة عظمته ، ذاكرة حسن تدبيره لأمور البلاد وسهره على مصالح الشعب .

وجلس على المنصة المرتفعة السمك المتباعدة الأقطار المتسعة الأرجاء التي أعدت خصيصا لهذا اليوم العظيم أمام باب من أبواب قصره الفاخر ، ووراء المنصة ثلاثة أبواب لكل باب منها مصراعان من خشب حسن الصنعة ، ينوء كل مصراع منها في فتحه وغلقه بالجماعة القوية ، وتفضي هذه الأبواب إلى الحدائق الجميلة ، ومدارج الشرفات العديدة التي

جعلت للظهور عليها أيام الاستعراضات والأعياد ، وكان هلال قد استطلع مظاهر الاحتفال من فوق إحداهـــا .

وتواصل الهتاف ، ووقف هلال ليشير عليهم بالسكوت والاستماع إلى الكلمة القيمـــة التي سيلقيها الأمير المعظـــم .

وسكت الجميع ، ووقف الأمير ليعلن بين الناس عن حدث جليل ، عن أعظم بيعة وافته إلى حد الآن ، هي بيعة أمير مكة الشريف العلوي ، وتأييده لبني حفص والدعاء له على منابر الحرمين الشريفين . وذكر بيعة بني مرين بفاس ، وبهدية صاحب بَرنُو من بلاد السودان ، وتخلص إلى الحديث عن حالة المسلمين السيئة في بغداد بعد أن افتكها المغول بقيادة زعيمهم هُولاَكُـــو من صاحبها المستعصم بالله الذي كان مولعا بتربية الحمام حتى

جمع منه عشرين ألفا . واتخذ وزيرا رافضيا يعلن بسب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لا يستتر بذلك ولا يردعه رادع ، وعمل هذا الوزير اللعين على فساد ملك بني العباس المحتضر : خلل في القيادة وضعف في التفكيـــر والتدبير ، وانهماك في الملذات وإهمال لمصالح الرعية ، نتيجة ذلك وغيره ضيع المسلمون السلطة ، وسقطت بغداد بأيدي المتوحشين المغول أولئك الذين جبلوا على النهب والسلب والتخريب ، حتى أصبح حبهم لسفك الدماء لا يضاهيه أي حب آخر ، وارتكبوا فيها من القتل والنهب وانتهاك الحرمات ما يعجز عنه الوصف ويقف دون تصوره الخيال ، نفوس بريئة أزهقت ، مدائن عامرة خربت أعراض هتكت أموال أخذت ثم قال :

إنه لمما يحز في النفوس ويدمي القلوب أن

يتقاعس حكام المسلمين عن أداء واجبهم والدفاع
عن حمى أوطانهم ، فتسقط ممالكهم كأوراق الخريف ،
وإلا فأين بغداد ؟ وطليطلة ؟ وقرطبة عاصمة بني
أمية بالأندلس ؟ وبلنسية ؟ وإشبيلية ؟ لقد صدق
الشاعر ابن رشيق القيرواني حين قال :

مما يزهدني في أرض أندلس
سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وإنني أشهدكم أيها الناس وأشهد معكم التاريخ
على أنني ساعمل ليلا نهارا من أجل النهوض
بالمسلمين وحماية وطننا العزيز وأكرس حياتي لتحقيق
ذلك ، وأتخذ كبير القوم أبا وصغيرهم ابنا .

ثم طلب من القاضي أبي القاسم بن البراء أن
يتلو نص هذه البيعة المجيدة على الناس ، وكان من

إنشاء أبي محمد بن سبعين الصوفي ، بعد أن رحل من بلده مرسية بالأَندلس ، وتذمَّم بجوار الحرم الشريف الأَمين ، وأوصلها إلى تونس المحدث الراوية أبو محمد بن برطلة .

ووقف ابن البراء ليتلوَ على الناس رسالة طويلة هي غاية في التأليف والإبداع والبيان ، ذكر فيها صاحب مكة على لسان كاتبه ابن سبعين أن هذه البيعة التي تحمل تأييده لبني حفص وولاءه لهم ،تذكره بأعظم فتح في التاريخ الإسلامي ، وهو بيعة مكة للنبيء لأَول مرة فقد قال تعالى مخاطبا رسوله الأَمين في فتح مكة :«إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا»· ونردد اليوم هذه الآية لتطابق صورة الحال ، إذ « كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب ، وعاملـــة في الأشياء مع الأزمان والحقب » ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ·

وإن من أنعم عليه الله بفتح مكة منبع الإسلام ومسقط رأس الرسول الأعظم تمت لـه النعمة ورفعت له الدرجة وضفت عليه الرحمة ، وإن كتابتها في ليلة جليلة هي ليلة القدر تكسبهـا جلالا وتقديرا وفضلا ، وإن هذه البيعة الجليلة كفيلة بأن تصبغ على صاحبها لقب أمير المؤمنيـــن وخليفـة المسلمين ، « ولئن كان لكل قرن إمامـة فإن إمامة هذا القرن قد اختصت بأمير المؤمنين الحفصي » بعد أن أخذت إشراقة الإسلام تتضاءل في الشرق

وتشع في الغرب في العهد الحفصي النير . وقد خص الله أمير المؤمنين بهذا النصر لما امتاز به من صفات هي الكمال بعينه ، فقد حمى المسلمين في عهد أخذ فيه نفوذهم يتقلص شرقا وغربا ، وأمل أهل الآفاق فيه المنقذ وامتدت إليه الأيدي بالطاعة، وأي غاية تطلب بعد طاعته .

هذا ما جاء يا مولانا المعظم المستنصر بالله في كتاب بيعة أمير مكة الذي كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف ، وهي وإن دلّت على شيء فإنما تدل على عظمة هذا السلطان الذي انقاد إلى طاعته أهل البيت والحرم . ومن البديهي أن تنقاد إلى طاعته بقية الأمصار والشعوب ، إذ من يبني المساجد والجوامع كجامع التوفيق ، ويرمم العتيق منها ، ويجري إليها المياه بهذه الصورة ، ويوصلها في قنوات من رصاص إلى

جامع الزيتونة يرتوي منها الغرباء ومن ليس في بيته ماء ويتطهر به المؤمنون ، ويبني قبة الجلوس هذه التي اعجزت الواصف ، ويكرم الوافدين على البلاد ، لجدير بأن تنقاد إليه النفوس .

وتحمّس أحد الشعراء فوقف منشدا :

اهنأ أمير المؤمنين ببيعة
جاءتك بالإقبال والإسعاد

فلقد حباك بملكه رب الورى
فأتى يبشر بافتتاح بلاد

وإذا أتتك أم القرى منقادة
فمن المبرة طاعة الأولاد

واستأنف ابن البراء خطابه وتعليقه على هذه البيعة قائلا :

— مولانا الخليفة ؟ إنه لمن المبرة أن نشيد ببيعة أهل الشام وبني مرين بفاس ، واستمرار

ولائهم لبني حفص الكرام ، وتعدد وفودهم الذين قابلتهم بالتكريم والتقدير ، فانصرفوا محبورين يلهجون باسمك وعظمتك .

وما زال حديث هدية ملك برنو من زنوج بلاد السودان المسلمين أَلذَّ حديث بين الناس وأطيبه ، هدية تتمثل في حيوان ما رآه الناس من قبل ، غريب الخلق طويل العنق والأرجل حتي ليظن الناظر أنه يسير بقوائم من خشب ، ولو أراد إنسان أن يمسك برأسه لوجب عليه أن يصعد سلَّما لا يقل طوله عن اثني عشر ذراعا اسمه الزرافة ، أقبل لمشاهدته خلق عظيم حتي غصت بهم الساحات وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته وأخذها من كل حيوان بشبه .

ومن الضروري أن نذكر باحتماء «دون الرنك»

أخي ملك قشتالة المغاضب لأخيه بأميرنا المعظم وتلقيه له بالمبرة والحباء بما يلقى به كرام القوم وعظماء الملوك ، وإنزاله من دولتك بأعز مكان ، ولا تصدر الأعمال العظيمة إلا من العظماء ولا يقع التقرب إلا ممن ضرب في العظمة بمقدار .

حوادث كثيرة جليلة توالت لتتوّج عظمة ملك بني حفص ، ولتصبح تونس بفضلك يا مولانا بحرا تصب فيه أنهار الحضارات والثقافات الأخرى ، فلتهنأ إنه عصر شبابها ، عصرها الذهبي

ونحن نشكر الإله الذي أنعم علينا بخليفة شاب ناشط يتقّد حيوية وذكاء ، ويدرك مصالح رعيته ؛ وما هذه البيعات العديدة إلا تقدير لنا من خلال شخصك الكريم ، فلقد رفعتنا إلى القمة ، وجعلت نجمنا يسطع عاليا

في كل مكان ، وذكرنا في كل حديث ، وأرجعت الأَمن الذي فقدناه منذ أزمنة عديدة ، فشعرنا به في عهدك الزاهر هذا ، وهو لعمري دين يعسر رده ، ولا تملك غير المحبة والطاعة والولاء والامتثال والدعاء .

وهكذا أصبحت تونس في عهدكم — يا مولانا — زاهية حرة إذ يكفي أن نتذكر الظروف التي مرت بها وامتصت مواطن الجمال فيها ، وأن نستعرض ما قام به بنو هلال من تخريب وهدم لمعالم حضارة هذا الوطن العزيز وكيف أكمل النصارى ما تبقى من هزيل عمرانها وضعيف إنتاجها وقلة أمنها ، وخاصة المتأمر على صقلية بهجومه على منطقة الساحل واحتلال مدينة المهديـــة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة هجري (1147م) ونقارن تلك الحالة بما أضحت عليه اليوم من

عمران شامخ وإنتاج وافر وأمن منشور وثقافة مزدهرة . فجامع الزيتونة أصبح أكبر جامعة إسلامية بزّت جامعات الشرق والغرب واستقبلت عددا كبيرا من الطلبة الوافدين عليها من مختلف الجهات والأَصقاع وأنبتت علماء أَفذاذا .

والآن أَصبح لقب أَمير المؤمنين جديرا بك وبِجدك ، وأَي سلطان يضاهيك في عظمتك ويشبهك في خصالك الحميدة ، وأَصبح الدعاء لك على المنابر بهذا الاسم محتما ، وطبعه على النقود ضروريا .

ـــ مولانا ـــ من أين للكلمات البيان والفصاحة لتعبر لكم عما يكنه هذا الشعب الذي غمرته الفرحة وعمه السرور ، فلم تنقطع هتافاته المعبرة عن شعور يخفق بالمحبة وإحساس يزخر بالتمجيد والتعظيم والتقدير لما صرنا عليه من مكانة



مرموقة عالية . إنني أمسك عن الكلام لأترك
للتاريخ المجال كي يسجل هذه الفترة السعيدة التي
نعيشها في عهدكم الزاهر في صفحات ذهبية
تتحدى الأزمان والعصور .

انتهى الاجتماع واستمرت الاحتفالات في كل حي
أياما عديدة استبشارا بهذه البيعة وتمجيدا لها،
وتبرع أمير المؤمنين الخليفة المستنصر بالله أبو
عبد الله الحفصي على الفقـــراء والمعوزين بمـال
عظيم وأغدق عليهم الخيرات والنعم: أموال توزع،
ذبائح تذبح، ولائم تقام في كل مكان، فرحة تعم
أنحاء البلاد. وأطلق سراح المساجين وعفا عنهم
وتعهد بحل جميع المشاكل وأسقط بعض
الضرائب، واتفق أن كان المطر قد احتبس ففي
ثالث يوم من هذه البيعة نزل المطر غزيرا ، وكأن
الطبيعـة أيضـا أرادت مشـاركتهم فرحتهم

والاحتفال معمم .

واقترح الوزير أبو سعيد عثمان المعروف بالعود الرطب على الخليفة المستنصر بالله الحفصي تغيير بعض التراتيب المتعلقة بسير أمور الدولة ، منها أن الأوامر السلطانية قد تنفذ بأمور صغيرة لاينبغي الكتب بمثلها عن الخليفة إذ يكبر قدر الخليفة عنها ، لذا يجب أن تكتب باسم من يعينه الخليفة لذلك ، أما الشؤون الكبرى والقرارات العظيمة فلاتصدر إلا باسم الخليفة فوافقه على ذلك .

الفصل الخامس

اجتمع الخليفة بقواده ووزرائه ومستشاريه ليقول لهم :

- بلغني - ياإخواني - أن النصراني مالك فرنسا يتأهب لمحاربتنا وقد ادعى أن تجار بلاده قد أقرضوا السارق — اللياني — من قرية لُلْيانة القريبة من المهديه — المتنكر لنعمتنا — مالاً يقدر بنحو ثلاثمائة دينار ، بعد أن اقتصصنا منه عندما حاول الثورة علينا والفرار من قبضتنا إلى صقلية مزودا بالأموال التي استحوذ عليها عند توليه أعمال الجباية .

وقد استدعيتكم لنحكم معا الاستعداد لمجابهة هذا الطاغية ، ونلقنه درسا . وعلمت أنه استعد استعدادا كبيرا لغزو بلادنا متعظا بما حصل له سابقا بمصر ، متناسيا ما قطعه على نفسه من عهد بعدم الرجوع إلى محاربة المسلمين ، متخذا الدين وسيلة لتحقيق مآربه

مستنفرا ملوك أروبا لمساعدته، مستعينا بالبابا الذي أيده، وأوعز إلى ملوك النصرانية بمظاهرته ، وأطلق يده في أموال الكنائس ، وأجابه عدد كبير من ملوك النصارى، وهو بذلك يرغب في محو العار الذي لحقه بسبب هزيمته النكراء بمصر وأسره بها ، وعدم إطلاق سراحه إلا بعد أن دفع مالا عظيماً للملك المعظم ملك مصر ، وتعهد له بعدم غزو البلاد الإسلامية في المستقبل ؛ ويحاول التخفيف من أهمية الضربات القاسية التي يكيلها المسلمون في الشرق إلى الصليبيين الذين خالجهم الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه ، واتخذوا الصليب شعارا لهم ، ووضعوه على أسلحتهم وملابسهم وراياتهم ، وتوجهوا إلى تونس التي استجار الناس بملكها الذي أصبح يلقب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وما هذه الحملة التي يقودها الإفرنج إلا فرع من الحملات العديدة التي قادها ويقودها المسيحيون ضد

المسلمين في الأندلس وفي الشرق العربي منذ سنة ثمانين وأربعمائة (1096م) رغبة في توحيد الكنيستين الشرقية الأَرتودكسية والغربية الكاتوليكية، ووضع بيت المقدس الآمنة تحت سيطرة البابا ورجال الدين المسيحيين، والطمع في خيرات الشرق، وإنقاذ بيزنطة من الخطر الإسلامي الذي يهددها وخاصة منذ ظهور السلاجقة، والتخلص من المجرمين واللصوص الذين ملأوا سجون أروبا نتيجة القحط الذي أصابها بسبب تزايد سكانها وتأخر وسائل الإنتاج فيها.

قال أحد الحاضرين:

هذا هو الحق فما طرق العدو بلادنا من أجل مال بسيط أقرضه تجار بلاده، بل من أجل الحصول على تونس

قال الخليفة:

لقد أغراه أخوه شارل دانجو Charles d'Anjou

المتسلط على صقلية بعد أن سمع برغبتي في استرجاع تلك الأَراضي الطيبة السليبة ، أراضي صقلية ، وضمها إلى نفوذنا، وإطلاق الحرية للأَذان حتى يدوي عاليا بعد أن أسكت فيها ، ونجدد العهد لأَجدادنا المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل فتح صقلية ورفع راية الإسلام فيها .

ويظهر أن ضغائن قد تكونت لهم بسبب الهزائم العديدة التي ألحقها بهم المسلمون شرقا وغربا عبر العصور .

وقد بلغني أن صاحب الديار المصرية قد كتب لملك فرنسا أبياتا يهزأ به قال فيها :

قل للفرنسيس إذا جئته

مقال صدق من قؤول فصيح

قد جئت مصر تبغي أخذها

تحسب أن الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم

ضاق به عن ناظريك الفسيح

رحت وأصحابك أودعتهم

بقبح أفعالك بطن الضريح

سبعون ألفا لا يرى منهم

إلا قتيل أو أسير جريح

فردك الله إلى مثلها

لعل عيسى منكم يستريح

إن كان «باباكم» بذا راضيا

فرب غبن قد أتى من نصيح

وقل لهم إن أضمروا عودة

لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها

والقيد باق والطّواشي صبيح

وقد تحيلت فأرسلت لملك فرنسا رسلي مع كمية

من المال كهدية له ، حتى لا يتفطن إلى ما جاؤوا من أجله ، وهو الاطـلاع على مدى تجمعهم واستعدادهم ، ورجعوا إلينا وأعلمونا بسير هذا الطـــاغية إلينا عن طريق صقلية ، ميمما ميناء تونس ، وقد ألقينا القبض على عدد من عيونه وجواسيسه أمدوه بأسرارنا وتحصيناتنا ، أودعناهم السجن وسننتقم منهم .

إنني أعتمد على جيشنا القوي الذي بذل جهـــودا مشكورة في الماضي لتوطيد الأمن داخل البلاد ، وللقضاء على جميع الفتن والثورات ، والمستعد لرد أي غزو أجنبي . فبماذا تشيرون وأي اقتراح تقدمون ؟

وتكلم القاضي ابن عصفور قائلا :

ــ إننا نعلم ــ يا مولانا ــ أن الأمر لم يستتب لشارل دانجو هذا في صقلية ، فقد ثار عليه عدد كبير من الصقليين ، وقدم منهم جماعة إلى حضرتك مستنجدين بك ضد هذا الطاغية على بني جلدته ، واضطهد مسلمي صقلية

وجنوب إيطاليا ، وأساء معاملتهم ، وطالبك أيضا بالأتاوة التي كان يدفعها الحفصيون من قبل لملك صقلية ، مقابل الاتجار في مناطق سيادته حسب ادعائه فامتنعت ، ولم تعترف بما طلبه منك ، فاتخذ ذلك تعلة وحجة لمحاربتك ، وعجز عن مجابهتك ، فأغرى أخاه حتى يكون في المقدمة ، ودفعه إلى هذه المغامرة الفاشلة ونجح في مسعاه الخبيث .

قال الخليفة المستنصر بالله الحفصي :

ــ ذاك هو رأيي ، إذ كيف يسمح لي ضميري أن أدفع أموالا إلى النصارى فيتقوى جانبهم ضدنا ؟ هل فقدت صوابي ورشدي حتى أقود المسلمين إلى الهاوية ، وأجعل أمن البلاد في خطر ؟

قال أبو العباس أحمد الغساني :

ــ دمت ــ يا مولانا ــ عزيزا منصورا ، بجدك

عرفناك وبحزمك عودتنا ، فعلينا أن نستكثر من العدة ، ونقوي الحراسة بالثغور ، ونرمم الرباطات ، ونصلح الأسوار ، ونختزن الحبوب والزيوت استعدادا للطوارىء .

قال الخليفة :

ــ نعم ذاك ما سنفعله ، لكنهم سائرون نحونا ، فهل نصدهم عن النزول أو نسمح لهم بالدخول ؟

قال يحيى بن صالح قائد الجيش :

ــ سنكون كلنا صلاح الدين الأيوبي ــ يا مولانا ــ يجب أن لا نسمح لهم بالدخول ، بل علينا أن نصدهم حتى لا يطأوا أرضنا الطاهرة فيدنسوها ، إن في دخولهم تمكناً من أرضنا ، ويصعب علينا عند ذلك إخراجهم منها ، بينما لو صددناهم لاستنفذوا ذخيرتهم من الزاد والماء ، ولا ضطروا إلى الإقلاع عن محاربتنا والرجوع إلى بلادهم دون أن يحققوا أبسط غاياتهم وإتفه اما لهم .

قال يحيى بن أبي بكر :

— إنني لا أشاطر صديقي ابن صالح نفس الرأي مع احترامي لرأيه ، إذ لو صددناهم عن ثغر تونس ذي الحامية والعدد والعدة ، اصبحوا في بعض الثغور الضعيفة الأخرى غير المستعدة للقتال ، وعند ذلك يملكونها ويستبيحونها ويخربونها ويقتلون أطفالها ونساءها ويستعينون بخيراتها ويدخلون إلى بلادنا منها ، ويصعب علينا حينئذ الانتصار عليهم ، والرأي عندي أن نسمح لهم بالدخول عن طريق مرسى تونس المملوء بالجند ، وعلينا أن نجند العامة إلى جانب جيوشنا النظامية ونقوي الأسوار ، وندير حولها الخنادق ، ونخفي الآبار حتى لا نمكنهم من الماء العذب ، ونصمد أمامهم كالجبال الراسية لا تزعزعنا أية قوة ، ونرسل إلى ولاياتنا طالبين الحشود والأسلحة ، ثم نطوقهم ونقضي عليهم .

واستقر الرأي على السماح للفرنسيين بالنزول بمرسى

تونس حتى يتلقاهم المسلمون هناك ويلحقوا بهم الخسائر ويلقنوهم درساً آخر .

ونزلت جيوش النصارى آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة (1270م) ، وعلى رأسها ملك فرنسا لويس التاسع الذي تلقب بالقديس ، تصحبه زوجته ويعضده الأدواق ورجال الدين الذين يوقدون في نفوس الجنود نار الحماس ، ويمنونهم بنصر عظيم وغنائم كثيرة وأجر من الله كبير ، وكان جيشهم زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألفا من الجنود الواجلة في ثلاثمائة مركب بين كبير وصغير ، قذف بهم البحر على شواطىء قرطاجنة الآمنة ، وتلقاهم المسلمون بعزم صادق وإيمان قوي وتنظيم محكم ، مدفوعين بحماس الجهاد في سبيل الله والوطن ، وقسم الخليفة جيوشه إلى فرق عديدة ، وجعل عليها إسماعيل بن كلداسن وعيسى بن داود وأبا هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبُّو ، وأمرهم كلهم

راجع ليحي بن صالح ويحي بن أبي بكر ، ووصلت الإمدادات من كل مكان فجاء صاحب بجاية بجيوشه ، وسارعت جموع العرب وقبائل سدويكش وولهاصة وهوارة وزناتة وبني توجين للالتحاق بجيش المستنصر بالله حتى لا يفوتهم فضل الجهاد في سبيل الله والوطن ونعمة الاستشهاد في الدفاع عن حمى المسلمين .

قال الشيخ أحمد التاجر لأَصحابه وهم جلوس على مصطبة دكانه في سوق العطارين : — لقد سمعت يا إخواني أن جيوش النصارى قد استقرت بقرطاجنة ، وأنزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة ، وكانت ماثلة الجدران ، فاحتمى بداخلها جنودهم ، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ، ونضدوا شرفاتها ، وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى ، فكانت هفوة من المسلمين وغفلة منهم لعدم دفاعهم عنها أو تخريبها قبل وصول النصارى

إليها ، إذ كانت باباً تأتيهم منه النجدات والمدد والأقوات .

وابتدات المعارك ، فسلك بعض المسلمين طريقا في بحيرة تونس وألحقوا بالعدو خسائر فادحة ، وظفروا وغنموا غنائم كثيرة قوت حماسهم ودفعتهم إلى الاستزادة من الانتصارات فاضطر الفرنسيون إلى تمتين الحراسة وتقوية الدفاع في هذه الجهة .

والتزم السلطان القعود بإيوانه مع مستشاريه ، وهم الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود الرطب وابن أبي الحسين والقاضي أبو القاسم بن البراء وغيرهم ، يخططون الخطط ، ويستلمون أخبار المعارك لحظة بلحظة . واستمرت الحرب على أقوى ما تكون شدة وضراوة ، وشدد المسلمون الخناق على النصارى ، وألحقوا بهم فادح الأضرار والخسائر ، ومنعوا عنهم المياه ، ووقفوا صفا واحدا لم يتركوا للعدو منفذا واحدا يتسلل من خلاله إلى البلاد .

والتحق بالشيخ أحمد التاجر وأصحابه رجل يتهلل

وجهه بشرا وقال بعد أن بادرهم بالتحية :

ــ لقد اشتدت الوطأة على المسيحيين فنالهم التعب وأضربهم الجـــوع والعطش ، وقتل منهم عدد كبير ، وعجزوا عن مداواة جرحاهم لكثرتهم حتى تفشت فيهم الأمراض وعمل فيهم مرض الوبـــاء عمله ، فلم يسلم لويس التـاسع منه ، وأصبح ميتاً بسببه في عاشر محرم سنـة تسع وستين وستمائة (25 أوت 1270 م) فخارت عزائمهم ، وانطفأت شعلة حماسهم ، وأدركهم الوهن والضعف ، وانتشر الخبر ، وعلم به المسلمون فازدادوا حماسا بعد أن نشر المسيحيون من قبل دعاية بغية بلبلة رأي المسلمين وتشتيت صفوفهم، تقول إن الخليفـة المستنصر بالله قد رحل عن تـونس مع خاصته ملتجئا بالقيروان.

وحاول المسيحيون جمع صفوفهم وبايعـــوا فليب دمياط Philippe III Le Hardi الذي ولد بمصر عندما

هاجمها أبوه وأسر بها وسجن ، والتحق بهم ملك صقلية شارل دانجو أخو الملك المتوفي لويس القديس .

وتولت زوجة لويس القديس قيادة المسيحيين ، وأرسلت برسلها إلى المستنصر بالله طالبة منه أن يبذل لها ما خسروه في مؤونة قدومهم إلى تونس ، وتعقد معه معاهدة صلح لمدة خمسة عشر سنة ، وترحل بقومها عن تونس وتترك المسلمين تسعين منجنيقا وتتعهد له بعدم التعرض لأي جهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالا أو مآلا .

أحضر الخليفة المستنصر بالله الحفصي مستشاريه ليبحث معهم طلب ملكة الفرنسيين ، فأشاروا عليه بعدم الموافقة على ذلك ، وعدم الخضوع لرغبتها وتصديق أقوالها ، وقد كذبوا مرة فمن يمنعهم من الكذب مرة أخرى ، وقد وصل بهم الضعف درجة لا يتمكنون

بعده من مواصلة حربهم لتونس وقد صدقت قريحة الشاعر الذي قال :

يا فرنسيس هذه أخت مصر
فتهيأ لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك منكر ونكير

لكن الخليفة قال لهم :

ــ إنني لا أرى رأيكم ، إن دم المسلمين يراق كل يوم،وقد سنحت الفرصة لحقنه ، وأنا مستعد أن أضحي بكل مال في سبيل المحافظة على أرواح المسلمين ، والأموال تعوض لكن الرجال لا يعوضون ، وسيقبل الشتاء،ويصعب على المسلمين مواصلة الحرب بين الخنادق وفي بحيرة تونس في طقس رديء ، وقد نما لي خبر اعتزام العرب وبقية القبائل على الانصراف إلى مشاتيهم وزراعة أرضهم والإمدادات لا تنفك تتهاطل على الفرنسيين من صقلية .

هذا هو رأيي أيها الناس

قال أحد الحاضرين :

ـ إن اقتراحك ـ يا مولانا ـ عين الصواب فدماء المسلمين غالية والمحافظة على أرواحهم واجبة ، لكن لي رجاء أرغب في تحقيقه ، وهو أن لا تسمح للفرنسيين بدفن ملكهم في أرضنا الطاهرة . إذ سيكون وجود رفاته في تونس حافزا لهم في المستقبل يحثهم على الرجوع إلى بلادنا ومحاربتنا ، وسيحاولون بشتى الوسائل جمع شتاتهم لإخلال الأمن بربوعنا ، واحتلال أرضنا بعد أن أصبحت بالنسبة لهم أرضا مقدسة بدفن ملكهم الملقب بالقديس فيها .

قال الخليفة المستنصر بالله :

ـ إنني أعتقد أن هذه هي آخر حملة صليبية على البلدان الإسلامية ، فلقد لقنوا درسا بالشرق ، ولقناهم اليوم نحن هنا في تونس أعظم درس . فالنكبات تتوالى

عليهم والضربات تشتد ، وهم يعرفون أننا أناس متسامحون ، لا نتشفى من أعدائنا وخاصة الميت منهم ، ولا نتشدد عليهم فنحملهم مشقة نقل جثة متعفنة في طقس شديد الحر كهذا .

تأهب أيها القاضي ابن زيتون لكتابة هذا الصلح بالعربية مع ملكة الفرنسيين ، وسيحضر معك أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبدالقوي أمير بني توجين ، فأنتم خير من يمثلنا في هذا الصلح .

وعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة (أكتوبر 1270) وأقلع النصارى بأساطيلهم بعد أن مكثوا في تونس زهاء أربعة أشهر وعشرة أيام ، وتخلص المسلمون من شرهم ، وأصابتهم العواصف بالبحر ونقمت عليهم الطبيعة آخذة بثأر الشهداء الأبرياء ، وتحطمت بعض مراكبهم وهلك الكثير منهم ورجع المسلمون إلى شؤونهم يبنون ويعمرون ويشيدون .

الفصل السادس

كان الأمير أبو إسحاق بن أبي زكرياء الحفصي المقيم بالأندلس قلق البال دائم التفكير ، غير أنه في هذه الأيام ازداد قلقه وتشعب تفكيره . ولم يجد تفسيرا لذلك ، لعله الحنين إلى الوطن أو البعد عن الأهل أو الفراغ الذي يعيش فيه أو قلة الأخبار الواردة عليه من تونس أو هو شيء من كل ذلك .

وفي إحدى الأمسيات دخل عليه حاجبه وقال له

ـــ مولاي ؟ رسول من تونس يرغب في مقابلتك في أمر يزعم أنه مهم جدا

وصاح الأمير في لهجة المتلهف :

ـــ أدخله أيها الحاجب .

ويخرج الحاجب ثم يرجع يصاحبه رجل تظهر عليه علامات التعب من جراء السفر ، ويبادر الأمير بالتحية

ـــ السلام على الأَمير المعظم أبي إسحاق بن أبي زكرياء.

ـــ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ما وراءك أيها الرسول ؟

ـــ مولانا أبشر ، لقد قطعت المسافة بين تونس وغرناطة بدون توقف ، أطوي الجبال والفيافي وأقطع الأَنهار والبحار ، لأخبرك بخبر سار كنتَ وكنا ننتظره جميعا منذ أمد بعيد .

ـــ وما هو هذا الخبر الذي تحملت من أجله كل هذه المشاق والأتعاب ؟

ـــ البقاء في حياتك يا مولانا ، لقد مات الخليفة المستنصر بالله .

ـــ الله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؟ وما هو سبب موته ؟

ـــ مرض شديد ألم به ـ يا مولانا ـ فقد خرج من مدينة تونس للصيد وتفقد أحوال الرعية مع جمع من

حرسه ورجـــال دولته ، وثار الصيد بين يديه فطاردته الجوارح والخيل ، فالتجأ إلى مغـــارة ، ودخل وراءه الرجال المصاحبون لأخيك المستنصر ، فوجدوا بالمغارة رجلا قائما يصلي فسلم من صلاته وقال لهم :

ــ « هذا دخيل الفقراء ، اتركوه ؟ »

فرجعوا إلى المستنصر بالله فأخبروه بذلك فقال لهم:

ــ « لا بد من الإتيان بالصيد »

فرجعوا إلى المصلي بالمغارة فمنعهم منه وأبى تسليمه لهم ، فرجعوا إلى المستنصر فقال لهم :

« ارجعوا وإن منعكم الرجل منه أعطوه الرماح ؟ »

فرجعوا إليه وأخبروه الخبر فقال لهم :

« وأنا قد أمرت للسلطان بالرماح »

وغـــاب عنهم ، ففتشوا عنه فلم يعثروا له على أثر ، فرجعوا ووجـدوا السلطان قد سقط من فرسه مغشيـا عليه ، فرفعوه ، واهتموا بشأنه ، حتى أفاق بعد زمان ،

ورفع إلى قصره ، ولازمه المرض ، واشتدت علله ، وتحالفت عليه ، وكثرت الأخبار والأراجيف والتخوفات من موته ، فاضطر إلى الخروج يوم عيد الاضحى سنة خمس وسبعين وستمائة (1277م) يتهادى بين رجلين ، ورجلاه لا تخطان الأرض لما لحقه من سقم وضعف ، وجلس للناس في منبر ، وتجلّد لإظهار حركة عله يرفع من معنويات شعبه ثم دخل بيته وهلك لليلته .

– إنني لأشعر بحزن عميق وأسف شديد على وفاة هذا الأخ رحمه الله رحمة واسعة ، رغم أنه نفاني وشردني وغربني عن أهلي ووطني ، ولكن ما قام به من أعمال جليلة تتمثل في انتشار الأمن وامتداد سلطانه ، وتأديب كل من ينوي الانتفاض عليه ـ ففي العام الماضي فقط بلغني أنّه أدب أهل الجزائر الذين حدثتهم أنفسهم بالاستبداد والثورة وخلع ربقة الطاعة من أعناقهم ، فجاهروا بالخلعان ، وسرح إليهم العساكر

برًّا وبحرا ، وأدبهم وتقبَّض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس مصفدين ، وكان بهم حليما فلم يقتلهم بل اعتقلهم بالقصبة ــ وازدهار الحياة الاقتصادية وانتشار العمران ، وحمــــاية المسلمين ، رفعت رأس بني حفص والمسلمين عاليا ، وكونت دولة هي أشد ما تكون قوة وأعظم رفاهية وجباية ، وأوفر قبيلا وعصابة ، وأكثر عساكر وجندا ، فقد امتدت إليه الأَيدي معتصمة به واجتمع بحضرته أعلام النـــاس الوافدين عليه خصوصا من الأَندلس « من شاعر مفلق ، وكاتب بليغ ، وعـــالم نحرير ، متفيئين ظل ملكه ، متنــــاغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده ، وخفوت الملك إلا في إيوانه » ، كان رحمه الله سديد الرأي ، عظيم الهيبة متواضعا .

إن هذه الأَعمال العظيمة تغفر له ما ارتكبه نحوي . لقد كانت مدة خلافته ثمانية وعشرين عاما

وخمسة أشهر واثني عشر يوما تحدّت العراقيل لتتوج فترة هي أزهى فترات الدولة الحفصية وأسعدها ، وسودت صفحات قيمة في التاريخ ، وهكذا مات عظيما وانتصر على الموت فخلف ذكراه ، وحيكت كالعظماء حول وفاته الأساطير .

— إن ما ننتظره من أميرنا أبي إسحاق أعظم فقد أصبح مكان الخلافة شاغرا ، وقد مهدنا الأمور في تونس ، حسب تعليماتك السرية التي كانت تأتينا باستمرار ، ووجهني محبوك ومريدوك لأعلمك بالخبر حتى تسرع للالتحاق بتونس قبل أن تتركز قدم أبي زكرياء يحيي الواثق ابن أخيك الخليفة المستنصر بالله الحفصي في الخلافة ، فقد أخذ ينظم أموره فعين رئيسا لدولته أبا الحسين يحيى ابن أبي مروان الأندلسي الحميري الذي أصبح المتحكم ، فانفرد بتدبير أمور الدولة وأصبح الواثق في يديه كالمحجور ، فما ذنب

هذه الأمة حتى يتولى شؤونها صبي لا يحسن تدبير شؤونه؟ هل عقمت عائلة بني حفص حتى لم يوجد فيها من يتولى عرش الدولة الحفصية؟

— ومن هو هذا الرجل الذي عينه رئيسا لدولته؟

— هو رجل كثير الإعجاب بنفسه، مفرط التعسف، يستنقص غيره، مشتغل بأمور الضخامة والبناء والملاهي وأنواع الملابس الفاخرة وانتقاء الذخائر، يحسن الكتابة وليس له من خلال سواهـــا، فأفضى استبداده إلى فساد الحال وتغير القلوب.

— ذاك ما سيساعدنا في مهمتنا، أيها الحاجب اهتم بأمور هذا الرسول واصلح من حاله، ولنستعد للرحيل، وليكن موعدنا بتونس؟ فأنا أشعر بحنين جارف إليها ما أحسست بمثله من قبل.

طبــع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
تـــونس



